الشاعر الثائر

هذا الشاعر محترق متدفق، له معاناة تمور في صدره، وعنده صراع داخلي يتفاقم في جوانحه، فهو كتلة من الغضب على المخالفين، وهوشهاب ثاقب على أعدائه؛ لأنهم رفضوا الاعتراف به، وصادروا جهوده، وتنكروا لإبداعه، فهم والزمان والمكان والأصدقاء والسلطان بل الجميع ضده:

يا من نُعيتُ على بُعدٍ بمجلسه ... كلٌّ بما زَعمَ الناعون مُرتهنُ

كم قد قُتِلتُ وكمْ قد متُّ عندكُمُ ... ثم انتفضتُ فزالَ القبرُ والكَفَنُ

إنه أقوى من أعاصير الخصوم، وأعتى من أراجيف الأعداء، فهم يميتونه وهو لم يمت، ويشيعون نهايته وهو لم ينته، فهو ساكن في ضمائر الجمهور، خالد في سفر الإبداع، موجود في ديوان العبقرية، إن حساده يريدون شطب اسمه من سجل العظماء؛ فيغضب ويثور ويحتج ويرفض:

أبدَو فيسجُدُ من بالسُّوءِ يذكُرُني ... فلا أعاتبُه صَفْحًا وإهوانا

وهكذا كُنْتُ في أهلي وفي وطَني ... إن النَّفيسَ غريبٌ حَيثما كانا

حسبك الله من شاعر تتحدى الأزمات، وتدوس المنايا، وتجتاح معاقل الخصوم، وتواجه الموت الكالح بهمة كالدهر وعزيمة كالفجر.

والرجل مجروح في الصميم، مكلوم في سويداء القلب من أناس ما قدروه حق قدره، وما احترموا منصبه السامي في الأدب:

سوى وجَعِ الحُسَّادِ داوِ فإنَّه ... إذا حلَّ في قلبٍ فليسَ يحولُ

ولا تطمَعَن من حَاسدٍ في مودَّةٍ ... وإن كنتَ تُبديها له وتُنيلُ

هكذا جرب وذاق وجع الحساد، واكتوى بنارهم، وتلظى برمضائهم. إن المتنبي شاعر مجدد في عالم الشعر، ليس تقليدًا على مذهب شعراء المناسبات، ورواد مقاهي النفاق السياسي، وضيوف حفلات مراسيم تكريم الوفود، فهو لا ينتظر من الخليفة أن يقول: يا غلام أعطه ألف دينار، وأركبه بغلًا، واهده جارية؛ كلا، بل هو كما قال عبدالله البردوني:

مِن تلظِّي لموعِــه كادَ يعمـى كاد مِن شهرةِ اسمه لا يُسمَّى

من تُداجي يا بن الحسين أُداجي أوجهًـا تسـتحق ركلًا ولطما

إن هذا الشاعر يرفض أن يسام الخسف:

من يهـنْ يَسْهلُ الهـوانُ عليه مـا لجـرحٍ بميتٍ إيـلامُ

وهو يرى أن الموت على عَزٍّ أجل وأشرف من حياة على مهانة وذلة وخسة:

وإنْ لم تمتْ تحتَ السيوفِ مكرمًا تمتُ وتقاسي الذُّلَ غيرَ مكرمِ

إنه في هذا البحث يريحك من مطالعة كتاب في فن الاستجداء والاستخذاء، لتكون من حفظة متون الذل، ومن طلاب مدرسة الخنوع والجبن، وهويرى أن من مات تحت غبار المعركة لنصرة مبادئه، لا يذوق من طعم الموت إلا كما يذوقه صريع الشهوات، وعبد النزوات:

فطعمُ المـوتِ في أمـرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ فـي أمـرٍ عظيمِ

وهو معذب بنفسه الطموحة التواقة؛ لأن بداخلها همةً عارمة لا يردها شيء:

لحا اللهَ ذي الدُّنيا مناخًا لراكب فكلّ بعيدِ الهَّمِ فيها معذبُ

إنه الصعود أبدًا، والتفوق دائمًا، وهو مذهب الناجحين في الحياة كما وصفه هو بقوله:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُهم الجودَ يفقرُ والإقدام قتّالُ

وانظر ما أحسن لفظ المشقة؛ لأنه عام فائق يندرج تحته كل معاناة وجهد وتعب، ولفظ ساد أجمل من كل لفظ في موضعه، فهو فصيح باهر وضيء، وهذه ألفاظ زادها القرآن جمالا وروعةً وإشراقًا، وانظر إلى الإيجاز والاختصار في قوله: **الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتال**، مع حسن التقسيم، وجمال الفواصل، وبراعة الجرس، وحذف الحواشي والمعاضلة، ويقول عن اندفاعه الجارف، وبعد نظره، وتدفقه العاطفي المزلزل:

ولكنّ قلبًا بين جَنْبَيَّ ما له مدًى ينتهي بي في مُرادِ أحُدُّه

إنه يريد الاعتراف من الناس بنبوغه ومكانته وسموه، حتى يقول في مجلس ممدوحه:

سيعلمُ الجمعُ ممن ضمَّ مجلسُنا بأنني خيرُ من تسعى به قَدَمُ

ومهما خالفناه في هذا التبجح المكشوف؛ فإننا نوافقه على أنه نابغة في عالم البيان، وأعجوبة في دنيا الشعر، ويكفيه هذا الذيوع الأدبي، والشيوع الشاعري وهو مايريده.